مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سورة الممتحنة مدنية وآياتها ١٣ نزلت بعد سورة الأحزاب ، ولها ثلاثة اسماء: سورة الممتحنة ، وسورة الامتحان ، كلاهما لقوله تعالى : (**يا ايها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن**) الممتحنة / ١٠ ، والاسم الثالث سورة المودة لقوله : (**تلقون إليهم بالمودة**) الممتحنة / ١ و (**تسرون إليهم بالمودة**) الممتحنة / ١ و (**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة**) الممتحنة / ٧ .

قصة نزول السورة

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، واستطاع ان يؤلف بين المهاجرين والأنصار ، وان يضع اسس الدعوة الاسلامية ، وان يصنع امة تميزت بالاخلاق الكريمة ، والصفات الحميدة ، وقد وقف كفار مكة في وجه الدعوة الاسلامية ، وتمت عدة معارك بين المسلمين والمشركين ، منها غزوة بدر واحد والخندق والاحزاب والحديبية ، ثم توقفت هذه المعارك بعد صلح الحديبية ، وكان من اهم نصوص الصلح ، وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين ، وان من اراد ان يدخل في حلف محمد دخل فيه ، ومن اراد ان يدخل في حلف قريش دخل فيه .

وعلى اثر ذلك دخلت قبيلة خزاعة في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلت قبيلة بكر في حلف قريش .

ثم إن قريشا نقضت العهد ، بمساعدتها قبيلة بكر ، حليفتها على قتال خزاعة ، حليفة النبي ، حتى قتلوا منهم عشرين رجلا ، وقد لجأت خزاعة إلى الحرم لتحتمي به ، ولكن ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها ، فاستنصرت خزاعة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهب رجال منهم إلى المدينة فاخبروا رسول الله بما كان من غدر بكر بهم ، ومعاونة قريش عليهم ، وانشد عمرو بن سالم بين يديه :

يا رب إني ناشد محمدا ... حلف ابينا وابيه الأتلدا
إن قريشا اخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصرا أيدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نصرت يا عمرو بن سالم) .

واخذ رسول الله يتجهز لفتح مكة ، وطوى الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الامر ، فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول الأمين لا يريد ان يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد اهلها مع عدم المساس بهم ، فدعا الله قائلا : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » .

حاطب يفشي السر

كان حاطب من كبار المسلمين ، وقد شهد مع النبي غزوة بدر مخلصا في جهادها ، ولكن في النفس الانسانية جوانب ضعف تطغى في بعض الاحيان عليها، وتهوى بها من المنازل العالية إلى الحضيض . لقد كتب حاطب كتابا إلى قريش يخبرهم فيه بعزم المسلمين على فتح مكة ، واستأجر امراة من مزينة تسمى سارة، وجعل لها عشرة دنانير مكافأة . وأمرها أن تتلطف وتحتال حتى توصل كتابه إلى قريش ، فأخذت المرأة الكتاب فأخفته ، وسلكت طريقها إلى مكة . ثم اخبر الله رسوله بما صنع حاطب ، فارسل النبي عليا بن ابي طالب ، والزبير بن العوام في أثر المراة ، فأدركاها في الطريق ، واستخرجا منها الكتاب ، فأحضراه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فأطلعه على الكتاب ثم قال له : ما حملك على هذا ؟. فقال حاطب : يا رسول الله لا تعجل علي ، فوالله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكني كنت امرا ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد واهل فصانعتهم عليهم ، ولم افعل ذلك ارتدادا عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الايمان. ورأى النبي صدق لهجة حاطب ، وحسن نيته فيما أقدم عليه من ذلك الذنب ، فقال لمن حوله : اما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به . ونظر النبي إلى ماضي الرجل في الجهاد ، وحسن بلائه في الذود عن حرمات الاسلام ، فرغب في العفو عنه .

اما عمر بن الخطاب فقد كبر عليه أمر هذه الخيانة ، فنظر إلى حاطب وقال له : قاتلك الله ، ترى رسول الله يخفي الامر وتكتب أنت إلى قريش ؟ يا رسول الله ، دعني اضرب عنق هذا المنافق .

فتبسم رسول الله من حماسة عمر وقال : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله اعلم .

وفي هذه الحادثة انزل الله صدر سورة الممتحنة ، يحذر المؤمنين من أن يوالوا عدوهم ، او يطلعوه على بعض اسرارهم ، مهما يكن السبب الذي يدفع إلى ذلك، فإن العدو عدو حيثما كان ، وموادة العدو خيانة ليس بعدها خيانة . قال تعالى : **(يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون إليهم بالمودة)** الممتحنة / ١ .

فكرة السورة

تسير السورة مع النفس الانسانية ، تحاول جاهدة ان تربي المسلمين تربية خاصة ، عمادها الولاء للدعوة وحدها ، والمودة لله ، والمحبة لله ، والتجمع على دعوة الله .

على هذا المعنى قامت الدعوة الاسلامية ، وظهر الايثار والأخوة بين المهاجرين والأنصار .

ومن شعائر هذا الدين بغض الفاسقين والملحدين في دين الله ، وقد انتهزت السورة فرصة ضعف حاطب ، فجعلت ذلك وسيلة عملية لتهذيب النفوس ، ورسم المثل الأعلى للمسلم .

وقد عالجت السورة مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ، ليخرج المسلم من الضيق المحلي ، إلى الأفق العالمي الانساني .

« لقد كان القرآن بهذا الأسلوب في التربية ينشيء في هذه النفوس صورة جديدة ، وقيما جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفه المؤمنين في الأرض ، وغاية الوجود الإنساني .

« وكان كأنما يجمع هذه النبتات الصغيرة الجديدة في كنف الله ، ليعلمهم الله ، ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد ، وليشعرهم انهم رجاله وحزبه ، وانه يريد بهم امرا ، ويحقق بهم قدرا ، ومن ثم فهم يوسمون بسمته ، ويحملون شارته ، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الاقوام جميعا ، في الدنيا والآخرة ، وإذن فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته ، في عالم الشعور وعالم السلوك » .

تسلسل افكار السورة

سورة الممتحنة من اولها إلى آخرها تنظم علاقة المسلمين بالمشركين ، وتدعو إلى تقوية اواصر المودة بين المسلمين ، وحفظ هذه الوشائج قوية متينة بين المؤمنين ، وتبين ان عداوة الكافرين للمسلمين اصيلة قديمة ، فقد اخرجهم كفار مكة من ديارهم واهلهم واموالهم (الآية ١) ، وإذا انتصر المشركون عليهم عاملوهم معاملة الاعداء ، رجاء أن يعودوا بهم من الايمان إلى الكفر ، وحينئذ لا تنفعكم : **(أرحامكم ولا أولادكم)** ولا تنجيكم من عقاب الله (الآية / ٣) .

ثم ترسم السورة مثلا اعلى وقدوة حسنة بإبراهيم الخليل ومن معه من المؤمنين ، حين آمنوا بالله واخلصوا له النية ، وتجردوا من كل عاطفة نحو قومهم المشركين . واعلنوا براءتهم من الشرك واهله ، وقد استغفر ابراهيم لأبيه ، فلما تأكد لابراهيم إصرار ابيه على الشرك تبرا منه .

ذلك ركب الايمان ، وطريق المؤمنين في تاريخ البشرية يتسم بالتضحية والفداء ، والاستعلاء على رغبات النفس في صلة الاقارب من المشركين ، فالمودة لله وللمؤمنين (الآيات ٤ — ٦) .

ولعل الله ان يهدىء هؤلاء المشركين فيدخلوا في دين الله ، وبذلك تتحول العداوة إلى مودة ، وقد فتحت مكة بعد ذلك ، وعاد الجميع إخوة متحابين (الآية ٧) .

وقد ارسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فهو نبي الهدى والسلام ، والاسلام في طبيعته دين سلام فاسمه مشتق من السلام ، والله اسمه السلام ، والاسلام لا يمنع من موالاة الكفار والبر بهم وتحري العدل في معاملتهم ، ما داموا لم يقاتلونا في الدين .

ولكن الاسلام ينهي اشد النهي عن موالاة الكفار المقاتلين او الذين يستعدون لقتال المسلمين ، ويرى كشف خطط المسلمين لهم خيانة للعقيدة وللامة الاسلامية.

« وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة ، وجعلها هي الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون ، فمن وقف معهم تحتها فهو منهم ، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم ، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم ، ولم يصد الناس عنها ، ولم يحل بينهم وبين سماعها ولم يفتن المؤمنين بها ، فهو مسالم لا يمنع الاسلام من البر به والقسط معه » (الآيتين ٨ و ٩) .

وكان صلح الحديبية ينص على ان من جاء مسلما بدون إذن وليه يـــرده المسلمون إلى اهل مكة ، ومن جاء إلى مكة مشركا لا يردونه .

ثم اسلمت نساء من اهل مكة وجاء ازواجهن يطلبنهن ، فنزلت هذه الآيات تؤيد ان المراة لا يصح ان ترد إلى زوجها الكافر ، لانها لا تحل له بعد ان آمنت هي بالله ، وبقي الزوج على الشرك ، وكانت المراة تمتحن ، اي تحلف بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن ارض إلى ارض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله ، فاذا حلفت كان لنا الظاهر ، والله اعلم بالسرائر ، عندئذ تعيش في المجتمع المسلم ، فان تزوجت اعاد زوجها المسلم إلى الزوج المشرك ما انفقه عليها ، وكذلك إذا ذهبت زوجة مسلمة إلى المشركين مرتدة ، فاذا تزوجت يرد المشركون للمسلم المهر الذي دفعه لها . (الآيات ١٠ و ١١) .

ثم بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم كيف يبايع النساء على الايمـــان وقواعده الاساسية ، وهي التوحيد ، وعدم الشرك بالله إطلاقا ، وعدم اقتراف المحرمات وهي السرقة والزنا .. ثم طاعة الرسول في كل ما يأمر به ، أي امتثال المأمورات واجتناب المحرمات . (الآية ١٢) .

وفي ختام السورة نجد آية تجمع الهدف الكبير فتنهي عن موالاة من غضب الله عليهم من اليهود والمشركين . (الآية ١٣) .

مقصود السورة إجمالا

قال الفيروزبادي : معظم مقصود السورة : النهي عن موالاة الخارجين عن ملة الاسلام ، والاقتداء بالسلف الصالح في طريق الطاعة والعبادة ، وانتظار المودة بعد العداوة ، وامتحان المدعين بمطالبة الحقيقة ، وامر الرسول بكيفية البيعة مع اهل الستر والعفة ، والتجنب من اهل الزيغ والضلالة ، في قوله تعالـــى : **(يا ايها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور)** الممتحنة / ١٣ .